

دلائل الإعجاز

يلبسانِ المجد . فإن ذلك من أجل أنه لا يُؤتى بالاسم مُعرِّىً منَ العواملِ إلاَّ لحديثٍ قد نُويِّهَ إسنادهُ إليه . وإِذا كان كذلك فإنَّذا قلتَ : " عبدُ الله " فقد أشعرتَ قلبهَ بذلك أنك قد أردتَ الحديثَ عنه فإنَّذا جئتَ بالحديثِ فقلتَ مثلاً : قامَ أو قلتَ : خرجَ أو قلتَ : قدِمَ فقد عَلامَ ما جئتَ به وقد وطَّأتَ له وقدمتَ الإِعلامَ فيه فدخلَ على القلبِ دخولَ المأنوسِ به وقد يَلبَسُه قَبيحُ قولِ المتهيبِ له المطمئنِّ إليه وذلك - لا محالةَ - أشدُّ لثبوتِهِ وأنفَى للشُّبُهَةِ وأمنع للشكِّ وأدخلُ في التَّحقيقِ .

وجُمُلةُ الأمرِ أنَّهُ ليس إعلامُك الشَّيْءَ بَعْتَهُ مثلَ إعلامِك له بعدَ التَّنبيهِ عليه والتَّقدِّمةِ له لأنَّ ذلك يَجري مَجْرى تَكريرِ الإِعلامِ في التَّأكيدِ والإِحكامِ ومن هاهُنَا قالوا : إنَّ الشَّيْءَ إذا أضْمِرَ ثمَّ فُسرَ كان ذلك أفخَمَ له من أن يُذكَرَ من غيرِ تقدُّمِ إضمارِ ويَدُلُّ على صحَّةِ ما قالوه أنَّهُ نعلمُ ضرورةً في قوله تعالى : (فَإِنَّ زَنْهًا رَهِيمًا لَّا تَعْمَى الْأَبْصَارُ) فخامةٌ وشرفاً وروعةً لا نجدُ منها شيئاً في قولنا : فإنَّ الأَبصارَ لا تَعْمَى . وكذلك السَّيْلُ أبدأً في كلِّ كلامٍ كان فيه ضميرُ قصةٍ .

فقولُهُ تعالى : (إِنَّ زَنْهًا لَّا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ) يفيدُ من القوةِ في نفيِ الفَلاحِ عن الكافرينِ ما لو قيل : إنَّ الكافرينِ لا يُفْلِحون لم يُفدُ ذلك ولم يكن ذلك كذلك إلاَّ لأنك تعلمُهُ إياهُ من بعدِ تقدِّمةِ وتنبيهِ أنتَ به في حُكمِ مَنْ بدأ وأعادَ ووطَّأ ثم بيَّنَ ولوَّحَ ثم صرَّحَ . ولا يَخْفَى مكانُ المزيِّنةِ فيما طرِيقُهُ هذا الطريقِ .

ويشهدُ لِمَا قلنا من أنَّ تقدِّمَ المحدثِ عنه يَقتضي تأكيدَ الخبرِ وتحقيقَه له أنَّهُ إذا تأملنا وجدنا هذا الضربَ من الكلامِ يجيءُ فيما سبق فيه إنكارُ من مُذكَرٍ نحوُ أن يقولَ الرجلُ : ليس لي علمُ بالذي تقول فتقولُ له : أنتَ تعلمُ أنَّ الأمرَ على ما أقولُ ولكنك تميلُ إلى خصمي . وكقولِ الناسِ : هو يعلمُ ذاك وإن أنكر وهو يَعلمُ الكَذِبَ فيما قال وإن حلفَ عليه . وكقولهِ تعالى : (وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ) فهذا من أبينِ شيءٍ